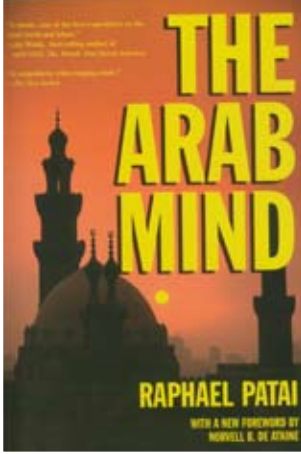


# العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس



## الفصل الرابع

### تأثيرات اللغة

#### 1. العرب واللغة العربية

عندما يتكلم سكان دولة أو أكثر اللغة نفسها، يقوم اللسان المشترك بتكوين رابط في ما بينهم وألفة وتعاطف يتخطى الحدود السياسية التي تفرقهم. من هنا فإن الناطقين باللغة الإنكليزية على ضفتي المحيط الأطلسي وفي أي مكان آخر يشعرون بأنهم أقرب إلى بعضهم البعض من الآخرين. مع أن الآخرين قد يكونون أقرب إليهم جغرافياً. وتكوّن اللغات الألمانية والأسبانية والبرتغالية روابط مشابهة بين الأمم الناطقة بها. ومع هذا، فإن الإحساس بالألفة الناشئ عن لغة مشتركة ينتج عنه أثر محدود دوماً، ولا يشوّش على مصالح واعتبارات الأمة التي تظل ثابتة في وعيها.

لكن ذلك لا ينطبق بشكل كامل على العرب. ففي البلدان العربية يتخلل العرب حالياً إدراك بكونهم أمة واحدة هي الأمة العربية. بغض النظر عن عدد الكيانات السياسية التي تتكون منها هذه الأمة الواحدة. وهذا لا يعني، بالطبع، انتفاء الفوارق، أو حتى انتفاء العداوة والاتهامات الغاضبة، بين الدول العربية. لكن في خضم الحروب الأخوية، يستمر الشعور بأنه مهما اشتدت آلام الصراع، فإنه مجرد خلاف مؤقت سيتم حسمه، وأنه مهما طال أمد هذا الصراع، فلن يخرق مبادئ الأخوة العربية ومثالية الوحدة القومية لكل العرب. وما من شك في أن اللغة العربية هي العامل الأهم في كل من إنشاء والمحافظة على الأسطورة التي احتلت موقع الأولوية عند العرب: الأمة العربية، والوحدة العربية، والأخوة العربية. يقول الناقد والروائي العراقي المعاصر جبرا إبراهيم جبرا: «كانت القوة الموحدة للغة العربية من الشدة بمكان بحيث أنها منذ البداية الأولى أصبحت جوهر المبادئ العربية.»

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

عدا عن ذلك، فإن النظر من قرب يرينا العرب وهم لا يكتفون بإظهار أنفسهم أمة واحدة بل إنهم يعتبرون الأعضاء البعيدين في هذه الأمة كفروع من أسرة واحدة موسعة جدا. إن الإغلاء من شأن العائلة، والذي يعتبرها المركز -عمليا- في كافة جوانب الحياة، كان ولا يزال في زماننا هذا أحد أهم القيم في التقاليد العربية. ويمارس إلى اليوم سلطة معتبرة على الأفكار والميول لدى العرب. وعند النظر إلى «الأمة العربية» كأسرة عربية، يميل العقل العربي إلى تكريس نفسه وفق القوانين والتجارب القديمة التي رافقت سياق هذه العائلة عبر قرون. وأحد هذه القوانين يتطابق مع مثل ذكرناه سابقا، ويوجد حاليا بصيغ مختلفة في كثير من الدول العربية، وهو: «أنا ضد إخواني، وأنا مع إخواني ضد أبناء عمومتي، وأنا مع أبناء عمومتي ضد العالم.» ويوجد هذا المثل أيضا بصيغة معكوسة تظهر النية بالتوبيخ على الميل للتخاصم: «أنا مع أبناء عمومتي ضد العالم، وأنا مع إخواني ضد أبناء عمومتي، وأنا ضد إخواني.»

يمكن تمثيل النظرة الجيوسياسية العربية تمثيلا جيدا باعتبارها سلسلة من الدوائر متحدة المركز. وكلما صغرت الدائرة كبر الإحساس بالانتماء والالتحام والولاء. وفي المجتمع العربي التقليدي كانت الدائرة الأكبر التي تحكمت بالولاء هي دائرة القبيلة، وفي المناطق المستقرة كانت هي القرية. وما وراء القبيلة أو القرية يقع العالم الخارجي، أو القبائل والقرى الأخرى التي تشكل خليطا يتسم بالعدائية. ولقد جاءت التأثيرات الأجنبية بالدائرة الكبيرة التالية: الأمة السياسية، والتي لم تتمكن إلى الآن من النجاح في الحلول في مقياس الولاء محل الدوائر الأصغر للقرى والقبائل والبنى السكانية الأخرى المؤسسة على أساس القرابة. وبعد ذلك تأتي الدائرة التي تشمل الدول العربية كافة أو كل العرب أينما عاشوا وكيفما تفاوتت انتماءاتهم السياسية. ثم يأتي على مسافة من العالم العربي: العالم الإسلامي، والذي يتواجد في الوعي العربي بشكل خفيف باعتباره عاملا يوحد عدة أمم غير عربية بالإضافة إلى الأمة العربية. وتشكل دائرة المسلمين غير العرب -بالنسبة للعرب- نوعا من الحافة التي تميز المسافة الواصلة ما بين العالم العربي وباقي أنحاء

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

العالم -الذي ليس عربيا ولا مسلما. ورغم هذا، فإن العربي إذا سئل أن يحدد الخط الفاصل ما بين «نحن» و«هم»، بين المجموعة الداخلية التي يحس بأنه جزء منها وبين المجموعة الخارجية التي تتكون من العالم الغربي؛ فسيشير بلا شك إلى الدائرة التي يتواجد فيها ناطقون باللغة العربية، وسيكون الخارج بالنسبة له حيث يتواجد الناطقون بغير اللغة العربية مهما اختلفت قناعاتهم الدينية.

في العالم الذي لا ينطق بالعربية، وكما رأينا، ثمة مجموعات عدة من الدول التي تنطق بلغة واحدة. لكن اللغة العربية هي الحالة الوحيدة التي تكون فيها اللغة عاملا يعرّف ويحدد الانتماء إلى تجمع قومي. إن أي عبارة مثل «الألماني هو من تكون لغته الأصلية هي اللغة الألمانية» هي عبارة غير حقيقية بالكامل لأنها تدخل إلى الألمان أمما أخرى مثل النمساويين والسويسريين. أما في العالم العربي فإن السؤال عن ماهية العربية يجد جوابا دائما: هو من تكون لغته الأصلية هي اللغة العربية. هذا هو الجواب الذي يقدمه الكثير من العرب أنفسهم، ولا يمكن الحصول على جواب آخر. إن هذه الهوية اللغوية تجعل «العرب» موزعين على أديان مختلفة (مع بعض الاستثناءات). وهكذا يصبح المسلمون السنة والشيعية من «العرب» في العراق واليمن، ويصبح المسلمون والمسيحيون -إن تكلموا العربية- من «العرب» في سوريا ولبنان؛ وهلم جرا. وتستطيع اللغة أن تتخطى حتى العادات الأصلية، وذلك يظهر في السيادة العامة لنظام المؤسسة الثنائية -انشطار المجتمع إلى قسمين متعارضين- وذلك على امتداد العالم العربي، حيث يعرّف أعضاء كلا المجموعتين على أنهم عرب. ويمكن لهذه الهوية أن تضم إلى العرب ذرية الصوماليين والأفارقة الذين كانوا عبيدا في الماضي حتى وإن كانت هناك نظرة خاصة للصفات الجسدية التي يتميز بها العرق الأسود، والحال نفسه بالنسبة لذرية البلغاريين وغيرهم من المهاجرين الأوروبيين الذين جاء أجدادهم عادة بسبب الخدمة العسكرية في الجيش التركي.

بما أن العالم العربي ليس موجودا على الصعيد الواقعي، فلا يوجد فيه سلطة تفرض رؤاها. ومن هنا، فإنه على الرغم من أن غالبية الحالات التي تم فيها تبني اللغة العربية

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

كلغة أصلية شهدت تعريبا تعدى اللغة إلى الاثنية. وبعض المجموعات الاستثنائية حافظت على هويتها الاثنية رغم التحول اللغوي للعربية. وهذه المجموعات غير المسلمة الناطقة بالعربية. والتي لا يعتبر أفرادها من العرب. ليست كثيرة وتعداد أفرادها قليل لكنها سهلة التمييز. وأكبر هذه المجموعات هي القبط في مصر. وهم طائفة مسيحية لا يزال أفرادها يتكلمون لغتهم الخاصة القديمة. وهي القبطية. ويستعملونها في الطقوس الكنسية. يليهم في ذلك اليهود. وهم قلة اليوم في الدول العربية نظرا لهجرة معظمهم إلى إسرائيل بعد عام 1948. وهم يتكلمون اللغة العربية ولكنهم يستعملون اللغة العبرية في الكنيس والدراسة والتعبير الأدبية. بالإضافة لذلك توجد عدة طوائف مسيحية أصغر تستعمل اللغة العربية للحياة اليومية واللغة السريانية وغيرها في الطقوس الكنسية. ولا تنطبق الأمثلة السابقة على الدروز الذين يقطنون إسرائيل ولبنان وسوريا. مما يدعو لإطلاق تعميم يفترض أن المجموعات غير المسلمة الناطقة بالعربية والتي تستعمل لغة أخرى في طقوسها الدينية لا تعد مجموعات عربية. ورغم ذلك يعد الدروز حالة خاصة: فهم ينحدرون من عرب مسلمين انفصلوا عن المجرى الإسلامي العام في القرن الحادي عشر. ورغم عدم تمسكهم بكونهم مجموعة ناطقة بالعربية واستخدامهم لهذه اللغة في الطقوس الدينية فإنهم لا يعدون عربا. وإنما هم دروز لا غير.

مع كل ذلك. فإن هذه الاستثناءات الهامشية لا تعد ذات أهمية كافية للتأثير بأي شكل من الأشكال على الصلاحية الشاملة للتعريف السابق: العربي هو من تكون لغته الأصلية هي العربية.

### 2. إغراءات اللغة العربية

يقول عالم اللغة الثعالبي (ت 1038م):

من أحبَّ الله تعالى أحبَّ رسوله محمدا. ومن أحبَّ الرسول العربي أحبَّ العرب. ومن أحبَّ العرب أحبَّ العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب.

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

ومن أحبَّ العربية عُنيَ بها. وثابر عليها. وصرف همَّته إليها. ومن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان وآتاه حسن سريرة فيه. اعتقد أن محمدا خير الرسل. والإسلام خير الملل. والعرب خير الأمم. والعربية خير اللغات والألسنة.

إن ما عناه الثعالبي بأن اللغة العربية «أفضل اللغات» ليس صحيحا تماما. لكنه كان محقا في ملاحظة إيمان المسلمين عموما بتفوق اللغة العربية. ومهما يكن من أمر. يذكر للغة العربية البلاغة العالية التي تتمتع بها والتي انطبع بها خبراءها الحقيقيون. كما كان لهذه البلاغة أثرها على المسيحيين أيضا. مما دفع بأحد الكتاب المسيحيين في قرطبة إبان القرن التاسع إلى أن يأسف على حال العامة من المسيحيين الذين أصبحوا «منبهرين بالبلاغة العربية».

إن التمجيد الكبير للغة العربية والذي أبداه الكتاب المسلمون والمسيحيون في العصور الوسطى المبكرة لا يزال صداه يتردد إلى اليوم من خلال ما يعتقد العرب حول قيمة لغتهم. فعلى امتداد المنطقة اللغوية العربية الشاسعة يعتقد الناس بتوافق نسبي بأن اللغة العربية هي الأولى بين اللغات لما فيها من جمال وفتنة قوية. وبخاصة عند إلقاء الشعر التقليدي والخطب الرسمية وشبه الرسمية. ويصر الناطقون بالعربية أيضا على أن لغتهم تتفوق على اللغات الأخرى من ناحية الجمال لما بها من صفات جوهريّة. حتى أن جبرا تحدث أيضا عن «سحر» اللغة العربية فقال: «عندما تستعيد اللغة نشاطها. ستزداد سحرا على سحر. وستكون فعالة أكثر مما مضى. لتتوضع كما هي في قلب النهضة السياسية الجديدة.» وتابع ليقول: «إن النحو العربي -على صعوبته- يمتاز في الأساس ببنية منطقية كما الرياضيات. وهذا جعل من اللغة دقيقة وسلسلة.» وفي ما يتعلق بصلة العرب بلغتهم يشير جبرا على «التفخيم الأصيل الذي يولع به العرب» و«المعجزة اللفظية» اللتين تفعلان فعلهما في أوساط الناطقين باللغة العربية.

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

وكما لاحظ أحد المستعربين الأمريكيين: يبدي العرب فخرا كبيرا بالنمط المنطقي لنظام الأفعال في اللغة العربية، بينما يبقون «غافلين عن ما يشبه الفوضى في نظام الأسماء.» وفي الحقيقة، يعتقد الكثير من العرب جازمين بقناعة مفادها أن اللغة العربية أفضل اللغات وأجملها إلى الحد الذي يتعاملون فيه بقدر كبير من الغضب والعدائية مع من يطرح مسألة لامنتطقية اللغة العربية.

إن الجانب الآخر من الأساطير العامة حول اللغة العربية، والذي يشكل «كتلة متراسة بقوة من المواقف والمعتقدات» في الخطاب العربي السائد، يتمثل في الإشارة إلى اتساع وغنى المعجم العربي، وفي القدسية المتأتية من كونها لغة القرآن. وكذلك يكثر من يشير إلى اللغة العربية الفصحى باعتبارها أفضل لغات العالم، وأن لهجته التي يستعملها هي الأقرب إلى الفصحى والأسهل تعلمًا والأكثر فهما من باقي اللهجات. وفي نفس الوقت لا تزال اللهجة البدوية تعتبر أفصح اللهجات.

لقد تأكدت من هذه الاستنتاجات عبر بحوثي حول القضية في القدس والناصره عام 1971. فعرب الناصرة، مهما علا مستواهم التعليمي (ومنهم من يحمل شهادة دكتوراه في علم الاجتماع من أمريكا)، واثقون بأن اللهجة الفلسطينية هي الأفضل لأنها الأقرب إلى الفصحى، أو لأنها الأوسع انتشارا من جميع اللهجات العربية. أما عرب القدس فيعتبرون اللهجة المقدسية، لا اللهجة الفلسطينية العامة، هي الأفضل لأنهم يعتقدون بأنها أقرب إلى الفصحى. لكن اللهجة البدوية لا تلقى تقديرا عاليا في كل من الناصرة والقدس، فمع أنها لهجة نقية، بقيت محدودة بقدر لا يمكنها من أن تكون وسيلة تعبير حديثة.

في كل بلد من البلدان العربية تتعايش اللغة العربية الفصحى جنبا إلى جنب مع العامية التي تتواجد بلهجات محلية شتى، والعرب مدركون لما ينتج عن هذا من مشكلة. ويحس كثيرون بأن هذا شذوذ سينتهي خلال 10 سنوات أو 50 سنة على أكبر تقدير. وستكون اللغة العربية في المستقبل لغة موحدة ومعيارية وعالمية شديدة الصلة بالفصحى

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

والوحيدة في الاستخدام لكل من القراءة والكتابة على امتداد العالم العربي. وستكون ملائمة لكل أنواع الأدب. وسيتحقق انتشارها وقبولها عالميا عبر ارتفاع مستوى التعليم والإذاعة والتزايد الكبير في تنقلات العرب وتواصلهم مع بعضهم البعض.

ومن أجل فهم قوة اللغة العربية في إنشاء ورعاية شعور خرافي بالوحدة ما بين شعوب الدول العربية الكثيرة المتشعبة. يجب على المرء أن يلقي ببصره إلى الماضي. فقبل البعثة المحمدية. اقتصر النطق باللغة العربية على شبه جزيرة العرب دون أن يشمل هذه المنطقة الواسعة القاحلة المسكونة جزئيا. وبعد أن أصبح الإسلام الدين المسيطر فيها. باشر العرب حديث الإسلام بفتح أجزاء شاسعة من العالم بحركة سريعة منتصرة لم يشهد لها العالم مثيلا. وخلال 80 عاما من وفاة النبي محمد (ت 632م). تحرك العرب إلى اسبانيا وشمال افريقيا ومصر والهلال الخصيب وعدة مناطق مجاورة. ولا يزال الوجود العربي والإسلامي قائما في معظمها إلى يومنا هذا. وحملت الأجيال التالية راية الإسلام إلى أصقاع الأرض: شرقا إلى وسط آسيا وصولا إلى منغوليا وشبه الجزيرة الهندية وجنوب شرق آسيا. وغربا إلى البلقان وهنغاريا. وجنوبا إلى النطاق السوداني العريض في افريقيا.

كانت اللغة العربية تلحق بالإسلام مع أن عمليتي التعريب والأسلمة انطلقتا سوية باعتبارهما جوانب أساسية من مسيرة الفتوحات والتحويلات. لكن المسافة بينهما كانت تكبر بازدياد البعد ما بين الأرض الأم والبقاع المفتوحة حديثا. وخالصة القول: إن بقعة مركزية واسعة نشأ فيها الإسلام واللغة العربية أصبحت محاطة بنطاق خارجي أوسع اعتنق سكانه الإسلام دون أن يتخلوا عن لغاتهم لصالح اللغة العربية. وهكذا أصبح العالم العربي يحتل منطقة مركزية ضمن العالم الإسلامي غير الناطق بالعربية.

استطاعت اللغة العربية أن تنتشر في الأماكن التي يتكلم سكانها الأصليون لغة سامية-حامية. أي أن تكون لغتهم قريبة نوعا ما من العربية. وهكذا. حلت اللغة العربية محل الآرامية. وهي لغة سامية. في الهلال الخصيب. والقبطية. وهي لغة حامية. في

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

مصر. لكنها لم تنجح أن تغلب على الفارسية في إيران، والبشتو في أفغانستان، والكردية في كردستان، والتركية في تركيا ووسط آسيا. كما قاومت قبائل البربر في شمال أفريقيا عملية التعريب بنجاح كبير ليومنا هذا. على الرغم من أن بعض الباحثين يعتبر اللغة البربرية عضوا في مجموعة اللغات السامية-الحامية.

ومع ذلك، فرضت اللغة العربية سيطرتها على مساحة واسعة تفوق مساحة أي بقعة من الأرض يسكنها شعب ينطق لغة واحدة. فاللغة العربية تستعمل في جنوب شرق آسيا، والجزيرة العربية والهلال الخصيب وصولاً إلى الحدود التركية والإيرانية، وكذلك في شمال أفريقيا: من مصر وجنوب السودان (من النيل وتشاد) إلى المغرب وموريتانيا بالإضافة إلى شمال الصحراء الأفريقية. وتوجد جيوب ناطقة بالعربية في أفريقيا (جيبوتي وزنجبار) وأوروبا (مالطا).

في ذلك الجزء من العالم حيث جرت عملية التعريب والأسلمة، والذي يتكون من عدة دول عربية حالياً، نالت حظوة عالية جعلتها تلي العقيدة الإسلامية من حيث الأهمية. وينص القرآن نفسه، وهو الكتاب المقدس الوحيد لدى المسلمين، بكونه «قرآنا عربيا»، وبسبب القرآن، أصبحت لهجة مكة في القرن السادس عشر اللغة الرسمية للدين الإسلامي والأدب لدى العرب أينما كانوا. وتطورت هذه اللغة لتتحول إلى ما تلاها من لغة الأدب العربي الحديث، ولكن بتدرج شديد وإلى مدى محدود.

ما أن أصبح القرآن الكريم الكتاب المقدس للمسلمين، احتلت اللغة العربية موقع اللغة المقدسة عند المسلمين جميعهم، بمن فيهم أولئك الذين يحيطون بالعالم العربي ولم يستعملوا اللغة العربية في حياتهم اليومية. إن أولئك يقرؤون القرآن ويحفظونه غيباً باللغة العربية، ويصلون بالعربية، ويستعملون الأبجدية العربية (مع بعض الاختلافات) في كتابة لغاتهم الخاصة. وكان المسلمون يرسلون بعض أبنائهم للدراسة في تركيا وبلاد فارس وأفغانستان وبخارى وتركستان وغيرها من بقاع المحيط الخارجي للعالم العربي،

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

حيث يتعلمون الكتابة العربية. وقراءة القرآن وربما تفسيره. وشيئا من العلوم إلى جانب ذلك. وكانت اللغة العربية تلعب في هذه البقاع دورا يماثل دور اللغة اللاتينية في الكنيسة الكاثوليكية.

إذا كان ذلك هو التقدير الذي حظيت به اللغة العربية في الأطراف. حيث لا يوجد إلا القليل من العلماء الذين يتقنونها بشكل كامل. فضمن المنطقة المركزية التي تم تعريبها بعد الفتح العربي الإسلامي نالت لغة القرآن المقدسة مكانة لم تبلغها أية لغة في أية ثقافة. إن عملية التثقيف العربي التي قام بها من لم تكن العربية لغتهم الأم. تطورت بمعزل عن أساسها الديني لتصبح هدفا أدبيا يسعى إليه لذاته بسوية متعاضمة من الشدة والإخلاص. إن خيرة العقول العربية اعتبرت اللغة العربية الكنز الأثمن الذي حظي به العرب. ووظفوا قدرات هائلة في سبيل الوصول إلى أقصى حد في استثمار إمكانيات هذه اللغة. وخلال سعيهم هذا استفادوا بشكل كبير من مخزونها اللفظي الغني. والبنية المتنوعة العظيمة التي يتصف بها نظام الأفعال. والسهولة التي تسلم فيها اللغة قيادها لإيقاع النبرات. وتلاؤمها الاستثنائي مع الأغراض البلاغية.

### 3. البلاغة

مصطلح «البلاغة» هنا يمثل القيمة العالية الاستثنائية التي يقيم بها العرب لغتهم. وارتباطهم غير الطبيعي بها. والتأثير الذي تمارسه عليهم. إن البلاغة ميزة مهمة جدا في الشخصية النمطية العربية.

لقد تسنى لي شخصا. وفي أكثر من مناسبة. أن أشهد قوة الفصاحة العربية -أو على الأقل- الاندخال بهذه الفصاحة والذي حذر منه ألفارو معاصريه من المسيحيين في قرطبة إبان القرن التاسع. كنت أشعر بذلك حين أحضر المسرحيات العربية. أو أستمع إلى خطبة عربية. أو أندمج في قصة يرويها أحد الرواة في مقهى ما في ليلة رمضانية. أو حتى عند خوض نقاش حيوي بين الأصدقاء. وبعابثاري مطلعا على العديد من اللغات. يمكنني أن

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

أشهد بالاعتماد على خبرتي الشخصية على أنني لا أعلم لغة تقترب -ولو قليلا- من اللغة العربية في قوتها البلاغية وقدرتها على اختراق وتجاوز المعارف الأدبية لتصل إلى العواطف وتطبعها بطابعها الخاص. وبهذا الاعتبار، لا يمكن مقارنة اللغة العربية بغير الموسيقى. وبينما يختلف تأثير اللغة عن تأثير الموسيقى لدى الناطقين باللغة الانكليزية، تجد العرب يتفاعلون مع اللغة والموسيقى بنفس النمط أساسا، غير أن تأثير اللغة لديهم ربما يكون أعمق وأشد وأكثر عاطفية.

يمكنني أن أستمر طويلا في طرح أفكارى الشخصية وأحاسيسي حول اللغة العربية، لكنني سأذكر آراء بعض المختصين من العرب أنفسهم، مما يجعل آراءهم تتصف بالطابع الرسمي. يقول ادوارد عطية في كتابه (العرب) حول علاقة العرب بلغتهم: «من خصائص العقل العربي أنه يميل إلى اللغة أكثر من الأفكار، ويميل إلى الأفكار أكثر من الحقائق.»

ويفصل المؤرخ الأمريكي من أصل عربي فيليب حتي القول في ذلك (في كتابه الوجيز في تاريخ العرب):

ما من شعب في العالم لديه هذا الإعجاب الحماسي بالتعبير الأدبي وتحركه الكلمة، منطوقة أو مكتوبة، كالعرب. ومن الصعب أن تهيمن لغة غيرها على عقول ناظقيها بتأثير لا يقاوم كتأثيرها. ويمكن إثارة العرب الذين يستمعون إلى الإذاعة في بغداد ودمشق والقاهرة بدرجة عالية من خلال إلقاء قصيدة لا تفهم إلا بصعوبة، أو بخطابات تعتمد النمط القديم وإن لم يع المستمعون مقاصدها كافة. إن الإيقاع والقافية والموسيقى تحدث فيهم تأثيرا يسمونه (السحر المباح).

ويطرح البرت حوراني في مقالة له مصطلحا يصف اللغة العربية بأنها «المرأة المشوهة التي يرى العرب العالم من خلالها.» ويستمر بالقول بأن اللغة العربية تحمل معها «مخيلة خاصة» وأن:

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

العرب يحبون الكلمات الصافية الرنانة لأسباب ذاتية، ويهتمون بالشعر والبلاغة أكثر من الفنون الأخرى. إنهم يحبون الإيماءات البطولية ويميلون إلى رؤيتها تفعل فعلها فيهم. باعتبارها تجسيدا لحدث لا حلقة في سلسلة (سبب ونتيجة). ومن الصعب شرح نظرهم إلى العالم؛ فهي تعتمد على نظرية (الأبيض والأسود). ومن خلال اللغة والمخيلة مرة أخرى يأتي نظام أخلاقي يمجّد الفضائل البطولية: الإخلاص للصديق والعائلة والقبيلة. الإحساس بشرف العائلة والنفس، وحسن الضيافة، وشهامة الرجل القوي الذي لا يصّر دائما على أخذ حقه.

ويذهب بعض الكتاب إلى حد الافتراض بوجود علاقة داخلية بين اللغة والرجولة تقوم على أن: الرجولة القوية تترابط مع البلاغة القوية. وهذا ما يراه أحمد حسن الزيات في كتابه (دفاع عن البلاغة).

سأورد الآن ملاحظة لغوية استنتاجا من تلك الآراء حول اللغة العربية: إن الكلمة العربية (البلاغة) مشتقة من الفعل (بلغ) الذي يعني (الإنجاز أو الدخول في مرحلة البلوغ). ومن هنا تكون البلاغة بالنسبة للعرب إنجازا يشابه الوصول إلى مرحلة الرجولة. ومن نفس الجذر اللغوي تأتي كلمة (مبالغة). وفي العقل العربي توجد علاقة ما بين البلاغة والمبالغة. وليست هذه العلاقة بالمعنى الحرفي للمبالغة إنما تنتج من التساوي في التأثير الذي يحدثه كلا الأسلوبين فحسب.

### 4. المبالغة والتوكيد والتكرار

البلاغة والميل للمبالغة اللفظية ظاهرتان تبدوان شديديتي الصلة فيما بينهما. ففي اللغة الانكليزية تقود البلاغة إلى المبالغة في بعض سياقات اللغة. ويلاحظ ذلك في المبالغة التي تشوب لغة التصريحات والانتقادات والمطالب والمخططات التي يتفوه بها الذين يتعصبون للغة الانكليزية. أما في اللغة العربية فإن البلاغة العظيمة تترافق مع ميل أعظم لاستخدام المبالغة. ثم يليها في مجال الخطب استخدام التوكيد.

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

إن من تسنح له فرصة الاطلاع على أنماط الخطب عند العرب. بمن فيهم الأغلبية الأمية في القرى والقبائل المترحلة. ينصدم بالسيادة غير الطبيعية التي تمارسها اللغة عليهم بحيث يكون ذلك إحدى ميزاتهم. وتعتبر هذه السيادة عن نفسها في استخدام خزينة لغوية ثرية بالإضافة إلى الإلمام بعدد هائل من العبارات الحكيمة شديدة التعقيد واللجوء المستمر إليها. وعند المقارنة مع بلاغة أبسط أمي عربي. تبدو اللغة الانكليزية التي ينطق بها شخص أمريكي عادي نوعا من الهمهمات المتناثرة.

تترافق سيادة اللغة العربية مع خاصيتين اثنتين. الأولى هي الإسهاب الأسلوبى. والثانية هي المبالغة والتوكيد. وبما أننا لا نناقش هنا الإسهاب الأسلوبى. فيكفي مثالان لتوضيح صورة عنه: ففي سوريا تستعمل لتوجيه الشكر (بالانكليزية «Thank You») عبارة «كتر خيرك» وهي اختصار وتحول للعبارة الفصيحة «الله يكثر خيرك». وعند الدعاء بالشفاء (بالانكليزية «Speedy Recovery») يقول العرب «ما عليك إلا العافية إن شاء الله». ويكفي هذان المثالان لإعطاء صورة بسيطة للقارئ الذي لا يعرف العربية حول الجودة الفاخرة للأساليب اللغوية العربية.

إن من يعتاد على التعبير عن أفكاره باستخدام مثل هذه العبارات الجاهزة (وثمة الكثير أكثر تعقيدا منها) والتي تتطلب استخدام ما لا يحصى من الأمثال والأقوال. لا يمكن الحؤول دون أن تقوده اللغة إلى استخدام المبالغة والتوكيد. وذلك بالمقارنة مع اللغات الأخرى (الانكليزية بخاصة). فالناطق بالانكليزية يجد العبارتين العربيتين السابقتين أكثر تأكيدا بكثير من العبارتين المختصرتين والجافتين اللتين تقابلهما في لغته. أما الناطق بالعربية فيعتبر عبارتيه المنمقتين أمرا عاديا جدا. وإليك مثلا ثالثا تبدو فيه المبالغة أشد وضوحا: إذ تستعمل لإبداء شعور الاشتياق (بالانكليزية «We Missed You») العبارة العامة «اوحشتنا» من الجذر (وحش: البرية، الصحراء، الكأبة، الغم).

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

عندما يلتقي أمريكيان صباحاً، سيقول الأول: «صباح الخير (Good Morning)». فيرد الآخر بالعبارة نفسها. أما عند العرب فالحساسية اللغوية تستاء من الإجابة بالتكرار، حيث قضت العادة بأن العبارات المهذبة ينبغي الرد عليها بعبارات أكثر إسهاباً؛ فإذا التقى عربيان صباحاً وقال الأول: «نهاركم سعيد» ينبغي على الآخر أن يرد: «نهاركم سعيد ومبارك».

من السهل طرح أمثلة تبين كيف غزت المبالغة والتوكيد كافة استعمالات اللغة لتصل إلى التصريحات والنقاشات السياسية. ففي عشية حرب 1948 قام موسى العلمي، القيادي الفلسطيني المعروف، بجولة جاب فيها العواصم العربية ليستصرخ القادة العرب الذين كان يعرفهم جيداً. في دمشق قال له رئيسها آنذاك: «يسعدني أن أخبرك بأن جيشنا ومعداته على أتم الاستعداد وسيكون قادراً على التعامل مع ثلثة من اليهود؛ وإنني أقول لك بثقة بأننا نمتلك حتى القنبلة النووية... نعم، لقد صنعت محلياً؛ إذ عثرنا على صديق ذكي جداً يعمل سباكاً». وفي العراق أخبره رئيس الوزراء بأن «كل ما يلزم هو <بعض المكناس> لإلقاء اليهود في البحر». وفي القاهرة أكد له أحد المقربين من ملك السعودية بأنه «ما أن نحصل على الضوء الأخضر من البريطانيين فسنتمكن من طرد اليهود بسهولة». إن ما جمع بين هذه التأكيدات اللفظية هو كونها عبارات شديدة المبالغة بالنسبة لما نوى أو أمل العرب بفعله، وكذلك لما أيقنوا بأهم قادرون على فعله حالما يبدؤون قتال اليهود؛ أما في الواقع: لم تل هذه العبارات جهود جادة أو داعمة لترجمتها إلى أفعال.

وثمة نمط آخر للمبالغة اللفظية يتمثل في الإشارة إلى أحداث يتمنى المتكلم حدوثها باعتبارها حقائق واقعة. ففي خريف عام 1964 قامت دانا آدم شميدت (Dana Adam Schmidt)، مراسلة صحيفة نيويورك تايمز، بزيارة اليمن التي كانت في خضم حرب أهلية؛ إذ كان أنصار الملكية الذين تدعمهم السعودية يقاتلون أنصار الجمهورية الذين يدعمهم الجيش المصري. ومع أن الدعم العسكري المصري - كما كتبت شميدت -:

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

كان في الحقيقة محبطا على الدوام، فإن المصريين أصروا على تجاهل كافة النكسات التي تعرضوا لها وزعموا تحقيقهم انتصارات باقتناع هائل إلى حد جعلهم يقنعون أنفسهم وربما بعض اليمينيين بذلك. لقد اندهشت، مثلا من الثقة الكبيرة التي جعلت العقيد حسن علي كمال، قائد العمليات، يدلي إلي بتصريحات كنت أعلم بعدها عن الحقيقة، وكانت التصريحات كالتالي: أن قبائل قارة انقلبت على الإمام وطردته من المنطقة، وأن القوات المصرية تتجول على الحدود السعودية وهي تمتطي الجمال، وأن المصريين فقدوا ثلاثة قتلى فقط في هجوم شهر أغسطس على منطقة حرض، وأن الأمير عبدالله حسن في خولان قد تعرض للضرب المبرح من القبائل التي رفضت العمل معه.

إن الآلية النفسية التي أنتجت هذه التأكيدات الباطلة شبيهة بالآليات النفسية التي تنتج الحلم النمطي بتحقيق الأماني: الرغبة الجامحة بأن يحصل حدث ما، أو أن يتحقق وضع ما، وهذه الرغبة تنتج عبارة لفظية (استجابة للحلم) يتمثل الحدث المنشود من خلالها بصورة حقيقة ناجزة.

يقترّب هذا التفسير من التفسير الذي حصلت عليه في مقابلة مع نائب وزير الصحة في الحكومة الإسرائيلية، عبد العزيز زعبي، في مدينة القدس؛ حيث رأى زعبي أن الرغبة في المبالغة عند العرب هي إحدى صفاتهم السيئة. وقال:

تقوم قلوبنا بأداء مهام عقولنا... إننا نبالغ في الحب والبغض كليهما. إننا عاطفيون ولسنا محللين محايدين، ونبالغ في الشرف على حساب الحاجة الحقيقية. إننا نرغب برؤية أمور معينة ثم نعتقد بأنها حقيقية.

تنبثق جذور الكثير من مسببات الميل إلى المبالغة والتوكيد من اللغة العربية نفسها. ومن المعروف جيدا أن الفعل في اللغة العربية له عدة صيغ وتصاريف تأكيدية، وكثيرا ما تستعمل أدوات التوكيد في بداية الجمل العربية، مثل (إن) في قولهم «إن هنا رجل».

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

والاستعانة بطرق أخرى مثل إضافة (ذا) إلى (ما) الاستفهامية في قولهم «ماذا فعلت.» وإضافة ضمير الغائب بين المبتدأ والخبر في قولهم «اللَّهُ هو الحي.»

ويلقي استعمال الصفات -بخاصة- ضوءاً على هذه القضية. فعلى العكس من اللغة الانكليزية التي تمتلك ثلاثة أنواع من الصفات (بسيطة ونسبية ومطلقة). لا يوجد في اللغة العربية سوى نوعين من الصفات (بسيطة وما يطلق عليه «صيغة أفعل التفضيل» والتي تتضمن الصفتين النسبية والمطلقة في صيغة واحدة) وفي ذلك تشترك مع الفرنسية التي تستعمل صيغة واحدة للفتين النسبية والمطلقة. ويمكن في اللغة العربية استعمال الصفة البسيطة للتعبير عن الصفة المطلقة مثل قولهم «كبير الناس» التي تعني (أكبر الناس). كما يمكن استعمال صيغة (أفعل) للتعبير عن صفة بسيطة مثل قولهم «اللَّهُ أكبر» التي تعني أن (اللَّهُ أكبر من كل شيء) حرفياً وتعني أن (اللَّهُ كبير) مضموناً. إن استعمال صيغة (أفعل) للدلالة على صفة بسيطة تشير إلى وجود ميل إلى التعبير التأكيدي. والنية هنا تتجه أساساً إلى صياغة جملة بسيطة ولكن على أساس تأكدي ولهذا يستعاض بصيغة (أفعل) بدلاً من الصيغة البسيطة للصفة. ومن الواضح أن صيغة (أفعل) لا تقتصر على معاني صيغة المقارنة والصيغة المطلقة وإنما ما يمكن اعتباره «توكيداً.» ومن هنا. يمكن لعبارة «اللَّهُ أكبر» أن لا تعني (اللَّهُ كبير) و(اللَّهُ أكبر من...) و(اللَّهُ أكبر من كل شيء) فحسب. وإنما لتعني أيضاً المعنى التأكيدي (اللَّهُ كبير جداً).

إن صيغة أفعل تستعمل عادة لتضخيم العبارة. وفي مثل هذا السياق تأتي الصيغة المطلقة من أجل تضخيم المعنى الأساسي للصفة. وليس للدلالة على الدرجة العالية الخاصة للنوعية التي تعبر عنها الصفة. وفي القرآن مثال على هذا في سورة الزمر (الآية 35): {لِيَكْفُرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}. فالتفسير الحرفي لكلمتي (أحسن) و(أسوأ) باعتبارهما صيغتين مطلقتين لا يؤدي المعنى المطلوب. وإنما يجب اعتبارهما مجرد صيغتين تضخيميتين للفتين (حسن) و(سيئ).

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

ثمة أسلوب آخر للتوكيد يتمثل في الميل إلى التكرار. فحينما يرغب العربي بترك انطباع لدى محاوره بأنه عازم على أمر ما. فإنه سيكرر ذكر ما يهتم بالقيام به مستخدماً سلسلة من التأكيدات المكررة التي تتصاعد نبرة تأكيدها مع القليل من الاختلاف في الأسلوب. وخذ مثالا على ذلك اتخاذ قرار إعلان قيام الطيران الأمريكي والبريطاني بمساعدة إسرائيل وقصف مصر في حرب 1967. ففي مكالمة هاتفية موجزة بين الرئيس المصري جمال عبد الناصر وملك الأردن الحسين بن طلال اتفقا فيها على القرار. كرر عبد الناصر مقصده 4 مرات على الأقل. بصيغة أكثر تأكيدا في كل مرة:

1. حسنا، الملك حسين سيصدر بيانا رسميا حول الأمر وسأصدر البيان ذاته...
  2. إذن، جلالتك ستصدرون بيانا حول التدخل الأمريكي والبريطاني...
  3. ليشهد الله عليّ، إني أقول لك أنني سأصدر بيانا وأنت ستصدر بيانا. وسنرى أن السوريين سيعلمون تعرضنا لهجوم الطائرات الأمريكية والبريطانية التي تنطلق من حاملات الطائرات.
  4. إذن سنصدر هذا البيان، وسنؤكد على هذه النقطة وسنفعل ذلك سوية.
- وفي نأ موجز أذيع من القاهرة عام 1957 مثال آخر على التكرار:

تفاصيل الأنباء: التقى الرئيس جمال عبد الناصر اليوم مع وفد الأساتذة والطلبة السوريين الذين يزورون مصر حاليا لتقوية العلاقات الثقافية بين البلدين. وألقى الرئيس فيهم خطابا تحدث فيه عن مؤامرات المستعمرين على القومية العربية. وقال أن القومية العربية هي الدرع الواقية التي ستدافع عن الدول العربية ضد مؤامرات المستعمرين وطموحات الطامعين. وأضاف أن مصر. بما أنها تطالب بالقومية العربية وأعلنت أنها جزء من الأمة العربية. وانتبهوا هنا. فإنها شعرت شعورا عميقا بذلك، وشعرت بأن العرب إن كانوا متحدين فسيتكفون من الانتصار

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

على المستعمرين. وإن كانوا متفرقين فسيكونون لقمة سائغة للطامعين والغزاة. وقال الرئيس: إن هدف القومية العربية هو تحقيق المصلحة التعاونية. والمصلحة المشتركة. والحماية. التي سنعمل جميعا لبلوغها. ضد الطامعين والمعتدين والمستعمرين.

إن الصفات التكرارية والتوكيدية لهذا «الموجز» تصبح أكثر وضوحا عندما نحلله ونجد أنه ذكر المستعمرين والاستعمار 4 مرات. والقومية العربية 4 مرات بالإضافة إلى مرتين ذكر فيهما الدول العربية ومرة ذكر فيها العرب. والطامعين 3 مرات. والشعور 3 مرات (فعلان واسم). والحماية مرتين. والمؤامرات مرتين. ويكمن جانب آخر للتكرار والتوكيد في الاستعمال المتكرر لعبارتين متشابهتين الواحدة تلو الأخرى من أجل التشديد على الفكرة الوحيدة المتماثلة. مثل: «مؤامرات المستعمرين وطموحات الطامعين» و«الطامعين والغزاة» و«المصلحة التعاونية. والمصلحة المشتركة»: أو استعمال ثلاثة عبارات. مثل: «ضد الطامعين والمعتدين والمستعمرين» أو تكرار العبارة نفسها. مثل: «شعرت شعورا عميقا بذلك. وشعرت....»

ومثال ثالث نأخذه من مقال كتبه كمال الدين حسين. وزير التعليم في الجمهورية العربية المتحدة. وكان المقال جزءا من مجموعة أوراق ناقشت العام 2000 ونشرت عام 1959 في مجلة الهلال القاهرية. وقام جمال عبد الناصر بكتابة مقدمة العدد ثم تلا هذه المقدمة المقال المذكور باعتباره أولى المواد. وجاء مليئا بالتكرار كما تبين ذلك الأمثلة المأخوذة من صفحتين وحسب:

اليوم يمكن رؤية عظمة وتألُق الثقافة العربية على مدى بعيد وواسع... إننا بالفعل نمتلك حضارة عربية يمكن رؤية عظمتها وتألُقها على مدى بعيد وواسع... إن الحضارة العربية اليوم تختلف شيئا ما عما اعتدنا أن نطلق عليه <علم العرب>... لم يكن <علم العرب> ما تمت دراسته سابقا.

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

سابقا كان كل ما يعرفه العرب هو الحلال والحرام مع القليل من الأدب وعلم اللغة والتاريخ... في الماضي كان العرب سادة علم ما أحله وحرمه الله وفنون اللغة والأدب والتاريخ... هنالك مجال فيها /الحضارة العربية/ لعلم ما أحله الله وحرمه. /الثقافة العربية/ يجب أن تتقدم وأن لا تفتر همتها حتى تلحق وتتجاوز الثقافة /الأوروبية/ التي تغلبت عليها. يجب عليها أن تلحق بها وتتجاوزها... وهكذا سنتغلب على أوروبا.

لقد تمكن بعض الكتاب العرب من إجادة اللغات الأوروبية بما في ذلك مفرداتها وقواعدها وأساليبها وحتى روحها. لكن كثيرا منهم واجهتهم الصعوبات التقاليد اللغوية العربية المتمثلة في المبالغة على الرغم من كتابتهم بلغة أوروبية. ومثال على ذلك ما كتبه مصطفى لاشيراف، وهو قيادي في جبهة التحرير الوطني الجزائرية وناشر معروف ومختص في التاريخ، وهو -بالطبع- يكتب بالفرنسية كما يفعل معظم المثقفين الجزائريين. لكن كتابته بالفرنسية لم تحرره من أسلوب المبالغة التقليدي؛ حيث كتب مثلا: «هاهنا المفارقة: معظم الجزائريين يقرؤون ويكتبون قليلا بالفرنسية. ناهيك عن العربية. ومع ذلك يدعون بأن لهم جذورا في ثقافة ذات تاريخ عريق حوّلها الاستعمار إلى خيال.» إن لاشيراف يعلم جيدا أن «معظم الجزائريين» أميون (92% وقت كتابة المقال 1954) وكان عليه أن يقول: «معظم الأقلية المتعلمة من الجزائريين الأميين، تكتب وتقرأ قليلا بالفرنسية...» ولكن تركيزه كان منصبا على توضيح قصده فاستعان دون وعي بالمبالغة وكتب عوضا عن ذلك: «معظم الجزائريين يقرؤون ويكتبون قليلا بالفرنسية...» مع أن هذه العبارة خاطئة بوضوح.

وفي مقالة للكاتب شوبي (E. Shouby) حول التأثير النفسي للغة العربية على العرب؛ أورد شوبي ملاحظات متبصرة حول التأثيرات الفينومينولوجية (الظواهرية) والنفسية الناجمة عن التوكيد والمبالغة. ففي قواعد اللغة العربية توجد صيغ فعلية خاصة للتعبير عن

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

تأكيد إضافي. وتوجد كلمات واصلة تعمل لنفس الغاية. بالإضافة إلى أدوات نحوية وصرفية أخرى. أما في ميدان الأسلوب؛ فهناك الاستعارة والتشبيه، واللذان يستعملان بكثرة. ولهما نفس التأثير الذي يشترك فيه معهما أسلوب التكرار الذي يمثل إحدى خواص الأسلوب اللغوي العربي.

ومع أن هذه المميزات القواعدية والأسلوبية لا تشكل معضلة في التواصل ما بين العرب. فإنها تمثل عائقاً في التواصل ما بين العرب وغيرهم (الغربيين بخاصة). ولا يختلف العائق سواء إذا كان التواصل عن طريق مترجم أو كان أحد الطرفين على معرفة بلغة الآخر. فالمعنى الحرفي لكلمة أو عبارة في لغة ما ربما يختلف عن أهميتها الحقيقية. وأذكر هنا بالنكتة الشائعة: إذا قالت امرأة «لا» فهي تعني «ربما». وإذا قالت «ربما» فهي تعني «نعم». وإذا قالت «نعم» فهي ليست امرأة. والقصد من وراء أول جزأين من العبارة هو أن المعنى الحقيقي للكلمات التي تلتفظ بها المرأة يختلف أحياناً عن معنى نفس الكلمات في سياق الاستعمال اليومي.

وعلى نحو مشابه، يمكن أن لا تعني موافقة بسيطة من عربي -بالنسبة له- أكثر من شكل مؤدب من أشكال التملص. بينما قد تعني هذه الموافقة التزاماً أكيداً تاماً بالنسبة لمحاوره الانكليزي. وإذا أراد العربي أن يعقد التزاماً ما، فسيستعمل المبالغة والتوكيد، بالإضافة إلى التكرار. وهو ما سيبدو غريباً في أحسن الأحوال. وتظهر هذه الصعوبة نفسها في الحالة المعاكسة أيضاً؛ فمجرد قول «نعم» أو «لا» يعتبر عبارة قاطعة لدى المتحدث الانكليزي. لكن محاوره العربي. وبتأثير من المبالغة والتوكيد الكثير في لغته الأم، لا يتمكن ببساطة من فهم عبارة موجزة وبسيطة كهذه بنفس الإحساس. فبالنسبة له تعتبر «نعم» تعني «ربما» فحسب (أما «لا» فلها نفس المعنى القاطع لدى اللغة الانكليزية). ولن يكون العربي قادراً على ادراك ما يعنيه محاوره الانكليزي بكلمة «نعم» على وجه الحقيقة إلا إذا قال له: «نعم، إني أكلمك جازماً. نعم، أضمن لك بالتأكيد وأشدد على ذلك. نعم، إن جوابي بشكل مبرم ونهائي هو نعم.»

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

طرح شوبي مثالا يرسم صورة للصعوبات التي قد تظهر أثناء التواصل ما بين أشخاص ينتمون إلى تقاليد لغوية مختلفة؛ وهو عن فتاة انكليزية وفتى عربي أخبراه عن العلاقة التي تربطهما:

اشتكت الفتاة من أن صديقها العربي. (أولا) كان يلح عليها بالتماساته وإعلاناته بحبها. وأنه (ثانيا) كان يرفض الاكتفاء بكلمة «لا» عندما أوضحت له بشكل كامل أنها غير مهتمة به على الإطلاق. أما الفتى العربي فأفضى بسرته حيث قال أن الفتاة الانكليزية (أولا) كانت تشجعه على ممارسة الجنس معها. وأنه لم يبد لها حتى الآن إلا القليل من الاهتمام والإعجاب. لقد كان كلاهما دقيقا في صراحته صدقه حتى بالنسبة لذاتيهما الواعيتين. لكنهما لم يعلما ما التضاد الذي يمكن أن ينشأ ما بين التوكيد الكثير عند العرب وبين اللباقة والتلميح عند الانكليز.

استنتج شوبي أن «العرب مجبرون على استخدام التوكيد والمبالغة في كافة أنماط الاتصال تقريبا» إذا كانوا يرغبون في التأكد من أنهم لم يسأ فهمهم. وكان هذا الاستنتاج عرضة لفحص شامل أجراه الباحث ادوين بروثرو (Edwin T. Prothro) الذي قام بإجراء استبيان على حوالي 140 طالبا في لبنان. وقرن النتائج المستحصلة مع نتائج لطلاب أمريكيين. فخرج باستنتاج مفاده «إن العبارات التي تبدو للأمريكيين شديدة من حيث الترغيب والنفور تبدو للعرب محايدة». وهذا قاد بروثرو إلى أن يصوغ نظرية تفترض أن الطلاب العرب «أكثر ميلا لاستخدام المبالغة من الطلاب الأمريكيين». وأن «الطلاب في العالم العربي إما أن يكونوا أكثر عاطفية من أقرانهم الأمريكيين، أو أنهم أكثر عاطفية فيما يتعلق بالحكم على الناس». وكان لبروثرو نصيحة مقنعة لكل من يرغب بنقل وجهات نظر العرب إلى الأمريكيين أو العكس. وهي أن «يتذكر دائما أن العبارات التي تبدو عبارات حقائق مجردة بالنسبة للعرب، إنما تبدو تأكيد مفرطة وحتى عنيفة بالنسبة للأمريكيين. وإن العبارات التي يستخدمها العرب لإظهار الحزم والقوة لنفي أو تأكيد أمر ما، قد تبدو للأمريكيين مبالغا فيها». وأن:

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

الذين يرغبون بعرض وجهة النظر الأمريكية للمتعلمين العرب يجب أن ينتبهوا إلى أن العبارة التي تبدو تأكيدا حازما بالنسبة للأمريكيين قد تعطي انطباعا ضعيفا وحتى ظلالات من الشك عند القارئ العربي. عندما يجري التواصل ما بين شعبيين ينتميان إلى ثقافتين مختلفتين، لا ينبغي الانتباه إلى مشاكل الترتيبات اللغوية فحسب، وإنما إلى مشاكل الثقافة والإدراك.

ولاحظ دارسون من العرب، أيضا، الميل العربي للمبالغة وهاجموه بكلمات ناقدة حادة. حيث كتب سالم اللوزي، رئيس تحرير أسبوعية الحوادث اللبنانية، مقالا في 16 يونيو 1972 بمناسبة مرور 5 أعوام على حرب حزيران 1967، وانتقد فيه قيام وسائل الإعلام العربية بتغذية الوعي العربي بتخيلات تافهة ومبالغات في استذكار ما جرى صيف عام 1967.

وإليك ملاحظة حكيمة أخرى حول الطريقة التي ينظر بها العرب الحداثيون المتعلمون في الغرب إلى الميل العربي لاستخدام المبالغة اللفظية، وهذه الملاحظة حصلت عليها من الدكتور سامي فرح غيرايسي، وهو ضابط مراقبة المدانين الطلقاء في الناصرة. ويربط غيرايسي بين هذه الخاصية والاستقلال الشخصي الذي ميّز حياة الفرد العربي، ويقول:

الدقة ظاهرة تعود للمجتمع الصناعي؛ إذ عليك أن تذهب للعمل في وقت محدد، وأنت مرتبط بألة لا تتحمل انعدام الدقة، وتعيش في عالم ليست فيه علاقات شخصية، وعليك أن تكون دقيقا في ما تقول وتفعل. لكنك إذا كنت مستقلا، كأن تكون فلاحا يعمل في حقله الخاص، فأنت تذهب وتعود حينما تشاء، وتكلم كيفما تشاء. إن المبالغة اللفظية والإسهاب والخيال تجعل المرء أكثر حرية. وعندما يكون لدى الناس وقت فراغ أكثر مدة، فسيملؤونه بالحوارات الطويلة والتحيات المفصلة وهذا يقود إلى المبالغة. ومن وجهة نظري الخاصة، فإن المبالغة ظاهرة ثقافية ذات جذور اقتصادية اجتماعية. وعلى نحو مشابه، تكون المفارقة تعويضا عن أمر مفقود. وما أن تأتي البراعة التقنية، فستصاحبها الدقة حتما. وحينئذ سيتغير ويزول الكثير، بما في ذلك المبالغة.

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

على الرغم من أن وقت الفراغ وظروف العمل المستقل لا تفسر الميل للمبالغة. فإن تحليل غيرايستي ذو قيمة تنبع من تقديمه للمبالغة باعتبارها ظاهرة عضوية متصلة بالأحوال الاجتماعية الاقتصادية للعرب. ويمكننا، حتماً، أن نمضي مع هذا التشخيص بقناعة كاملة لنرى النظام التقني الافتحامي. عاجلاً أم آجلاً. وهو يعلن نهاية ذلك التقليد الخاص لدى العرب وهو المبالغة.

من كل ما سبق أخص الحصيلة النهائية بالتعميمات الآتية: خلال عملية تعلم اللغة العربية، لا يكتسب الطفل العربي ألفاظاً وقواعد فحسب، إنما يضيف إلى ذلك الأسلوب بما فيه من أدوات مميزة تعرف بالمبالغة والتوكيد. ثم سريعاً ما يصبح اللجوء لاستخدام هاتين الأداتين أمراً طبيعياً كاستخدام الألفاظ والقواعد. وهذا يعني أن العربي من العامة حينما يستخدم المبالغة والتوكيد، فإنه في الواقع لا يعي، مطلقاً في الغالب، أنه يستخدمها. ففي عقله، وعقل محاوره العربي، ليست المبالغة والتوكيد غير عبارات بسيطة. وعندما يكون الحال هكذا، على الباحث أن يكون شديد الحذر عند ملاحظته لمضامين نفسية في أسلوب المبالغة والتوكيد عندما يتم تقديمها مترجمة بلغة انكليزية جافة، سواء أكانت بريطانية أم أمريكية.

### 5. الأقوال عوضاً عن الأفعال

اقترحتُ سابقاً أنه ربما توجد صلة ما بين تقليد رضاعة الولد عند الطلب اللفظي وبين توقعات نشأة هذا الولد، وهذه الصلة تتشكل وتفرض في عقل الطفل كنتيجة لخبرته الناشئة من التلبية الأكيدة لحاجته حينما يؤكد عليها لفظياً، كما هو الحال في ميل البالغين من العرب إلى التأكيد اللفظي على المطالب والنوايا دون أن يتبعوا ذلك بأفعال. وهنا أود أن أضيف نقطة أخرى إلى صورة أساليب تنشئة الطفل عند العرب والتي يبدو أنها تنتج أثراً دائماً في عملية تشكيل الشخصية العربية. وهذه النقطة هي الدور الذي تلعبه التهديدات اللفظية في التهيئة الاجتماعية المبكرة عند العرب.

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

أشرنا في الفصل السابق إلى دراسة قام بها الباحث ادوين بروثرو (Edwin T. Prothro) حول أساليب تنشئة الطفل في لبنان، وفيها تبين أن الأمهات من العرب السنّة كثيرا ما يلجأن إلى التهديد في سبيل ضبط أطفالهن ولكنهن يفشلن في تنفيذ هذه التهديدات. ففي بعلبك، وهي أكبر مدينة مسلمة في سهل البقاع، قالت 88% من الأمهات أنهن يستخدمن التهديد دائما ويفشلن في تنفيذه. وفي العاصمة بيروت أجابت 52% من الأمهات المسلمات بنفس الإجابة. ومن المثير للاهتمام أن الدراسة لم تظهر انخفاضا كبيرا في هذه النسبة لدى الأمهات المسيحيات فحسب، إنما كشفت علاقة معاكسة ما بين العاصمة ومدن الريف: فأصبحت نسبة اللجوء للتهديد اللفظي 28% فقط عند أرثوذكس الوادي (في مدينة زحلة)، و36% عند أرثوذكس بيروت؛ و16% عند أرمن الوادي (في قرية عنجرا)، و35% عند أرمن بيروت.

من المقبول عقلا أن الأشخاص الذين يتعرضون في طفولتهم لتهديد كثير بعقوبة لا تنفذ، سيلجؤون إلى نفس الآلية عند بلوغهم. وهذا بالضبط نمط من أنماط السلوك العربي الذي يتوضح بالدراسة. وفي الواقع، فإن التقليد العربي المتمثل في محاولة تهديد العدو بتهديدات لفظية يشكل ميزة شائعة للشخصية العربية لا تخفى على المراقب عربيا كان أم أجنبيا. وكمثال على ما سبق، نذكر إجابة نائب وزير الخارجية المصري، صالح جوهر، على سؤال وجهه كبير محرري مجلة (تايم)، رون كريس، حول معنى التصريحات التهديدية ضد إسرائيل: حيث أجاب جوهر: «عندما يتجادل العرب، يصيح كل من طرفي الجدل على الآخر من الرصيف المقابل، «سأقطعك إلى أشلاء»، و«لن تعيش إلى الغد»، وبعد ربع ساعة، يمشي كل في طريقه دون أن يتعرض أحد للأذى. وهذا ما لا يفهمه الإسرائيليون.» كما يناقش د. صادق جلال العظم ظاهرة النقد الذاتي العربي التي تلت حرب حزيران 1967، فيقارن سلوك الروس قبل الحرب الروسية اليابانية عام 1904 مع سلوك العرب عام 1967: حيث انهمك الطرفان في توجيه تهديدات فارغة وتفاخرات تافهة. حيث هدد الروس بأنهم سوف «يلقون هؤلاء الآسيويين الوقحين في البحر» أو «يدفنونهم تحت قبعاتهم» وما

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

شابه ذلك من الكلام. وأشار العظم إلى أن مفاخرات وتهديدات مشابهة يمكن ملاحظتها في كتابات وزير الإرشاد القومي المصري، محمد حسنين هيكل، التي نشرها في صحيفة الأهرام شبه الرسمية خلال الأيام التي سبقت الحرب.

إن التهديدات اللفظية التي لا يؤثر التلفظ بها على واقع عدم تنفيذها، ليست سوى إفراز من إفرازات خاصية الاستعاضة عن الأفعال بالأقوال، والصيغة اللفظية لنية أو طلب دون إتباع ذلك بفعل ما، فبتأثير من خبرة الطفولة في تلقي تهديدات لا تنفذ، يقوم العربي البالغ بتوجيه تهديدات وطلبات ونوايا لا ينوي تنفيذها، لكنه يجد فيها، حين لفظها، استرخاء في توتر عواطفه وراحة نفسية بالإضافة إلى تخفيف الضغط الناجم عن الحاجة إلى القيام بفعل ما لتحقيق الهدف المذكور لفظاً، وفي ما يلي عدة أمثلة تظهر كيف يفعل هذا الميل فعله في حلبة السياسة، ولنبدأ أولاً بقضيتين متصلتين بالموضوع يشرحهما الحسين بن طلال، ملك الأردن.

يقول الملك حسين حول مؤتمر قمة القاهرة الأول عام 1964، أن المؤتمر كان «بالنسبة لكثير من العرب خدعة قاسية. وذلك لسبب وجيه! إذ أصر الجميع على أن <الإسرائيليين إذا ما حولوا مجرى مياه نهر الأردن، فسيشهر العرب أسلحتهم فوراً لمواجهتهم>، لكن شيئاً مماثلاً لم يحدث، فعندما شرع الإسرائيليون بتحويل مجرى مياه نهر الأردن، اتجه الجميع إلى جمال عبد الناصر» والذي بدوره دعا إلى مؤتمر القمة الأول، والذي تلتته قمتان أخريتان، دون التوصل إلى اتفاق.

وإليك مثلاً آخر على المغالاة في تقييم الكلمات ونزعة الاستعاضة عن الأفعال بالأقوال، من خلال تقييم الملك حسين للقائه بالرئيس المصري جمال عبد الناصر في 30 مايو 1967. ففي ذلك اليوم وعلى الرغم من «الإهانات التي بثتها إذاعة القاهرة على مدار العام الفائت»، سافر الملك حسين للقاء عبد الناصر، وخلال الاجتماع، وبعد التغلب على التوتر وانعدام الثقة في بدايته، اقترح عبد الناصر توقيع اتفاقية «فوراً بين بلدينا في هذا المكان».

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

وبدوره طلب الملك حسين من عبد الناصر أن يرسل من يحضر ملف الاتفاقية الدفاعية الموقعة ما بين مصر وسوريا والتي ربطت البلدين منذ أبريل 1967. يقول الملك حسين: «كنت شديد الحرص على التوصل لاتفاق ما لدرجة أنني أذحت الاتفاقية جانبا وقلت لعبد الناصر: >أعطني نسخة أخرى. ضع الأردن عوضا عن سوريا وبذلك نصل إلى تسوية.< وفي جو من الراحة والمودة، وافق عبد الناصر. وبعد قليل قمت بالتوقيع.»

إذا أمعنا النظر بعقلانية إلى هذه الحادثة، فإن توقيع اتفاقية دفاعية ثنائية بين قائدي بلدين كانا لتلك اللحظة في أعلى درجات العداء، لا يمكن تفسيره سوى أنه بادرة حسن نية. وتشير حقيقة كون الاتفاقية وقعت في لحظة عابرة، ودون قراءة وافية من الملك حسين بعد استبدال «الأردن» بـ«سوريا»، إلى أن النية كانت أساسا تتجه نحو إصدار بيان للاستهلاك العام. وفي الواقع، كان تأثير توقيع الاتفاقية تماما كما كانت النية من ورائه. إذ بثت إذاعة القاهرة النبأ فورا، وفي مساء اليوم ذاته (30 مايو)، عاد الملك حسين إلى عمان، حيث استقبله «انفجار لا يوصف من الفرح الشعبي»، وعندما خرج من الطائرة «حيّاه آلاف المتظاهرين الذين اندفعوا خلال بضع ساعات من كل ركن في عمان. وللتأكيد على سعادتهم رفعوا سيارته مرارا بشعور من الانتصار.» كما يقول زيد الرفاعي مدير المراسم والسكرتير الخاص للملك حسين الذي يضيف: «بدا لرجل الشارع أن الملك حسين تغلب على كل المعوقات التي فرضتها الخلافات العربية [والرفاعي يقصد هنا المعوقات التي تحول دون إنجاز الوحدة العربية]. وفي نفس الوقت، نجح في تنظيم الدفاعات الأردنية في مواجهة العدوان الإسرائيلي الذي نعتبره جميعا وشيك الوقوع.» وكما يظهر من هذه الأقوال، فإن الأمر لم يقتصر على «رجل الشارع» فحسب، وإنما تعداه إلى السكرتير الخاص للملك حسين، وحتى الملك حسين نفسه، للقبول بإعلان لفظي (وفي هذه الحالة، مكتوب) بديلا عن القيام بفعل ما، إن التوقيع المتسرع للوثيقة اعتُبر مساويا لنجاح فعلي في «تنظيم الدفاعات الأردنية.»

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

في الواقع. لم ينتج عن الاتفاقية الدفاعية أي دعم مصري للأردن باستثناء زيارة قام بها بعد يومين (1 يونيو) الجنرال المصري عبد المنعم رياض وطاقم من ضباطه لاستلام زمام قيادة القوات العربية في الجبهة الأردنية.

وفي تاريخ العراق الحديث أمثلة على ميل العرب للاستعاضة عن الأفعال بالأقوال. حيث يصف مجيد خدوري مطالبة العراق بالكويت عام 1961 قائلاً: «تحدث عبد الكريم قاسم بصوت عالٍ لكنه لم يقم بأي إجراء.» وقال أيضاً: «على الرغم من أنه ظل يكرر ادعاءه، فإنه لم يقم بأي تحرك لاستخدام القوة.» وفي مناسبات عديدة. أعلن قاسم أنه يعتبر الكويت «جزءاً لا يتجزأ» من العراق وأنه ينوي إلحاق مشيخة الكويت بالدولة العراقية بالوسائل السلمية. مع أنه ظل يكرر أنه قادر على فعل ذلك باستخدام القوة. وفي مؤتمر صحفي، في 25 يونيو 1961، حيث أعلن لأول مرة ادعاء العراق تابعة الكويت. ألقى قاسم تصريحاً حول الإجراءات الإدارية التي ينوي القيام بها عند إلحاق الكويت بالعراق. وبعد أن استعرض الصلات التاريخية للكويت بالعراق وادعاء تابعة أراضي الكويت للعراق باعتباره جزءاً من محافظة البصرة. قال قاسم: «وفقاً لذلك، سوف نصدر مرسوماً بتعيين شيخ الكويت قائممقام للبصرة ويكون تحت سلطة محافظة البصرة.» إن هذا التعيين كان ليكون بلا معنى بحسب اهتمام المشيخة في الكويت. ولكنه كان ليكون خطوة. وإن كانت تصريحاً. بحسب اهتمام الوضع السياسي الداخلي في العراق. لكن قاسم لم يتجاوز تصريحه حتى بمجرد إصدار المرسوم، وكان جلاً ما فعله أن يصرّح بأنه، في وقت ما من المستقبل. «سوف» يصدر مرسوماً. إن هذا، في الواقع، مثال تقليدي عن الاستعاضة بالأقوال عن الأفعال: فما فعله قاسم لم يتعدّ التصريح بأنه ينوي القيام بتصريح، وهذا التصريح، كما يعلم قاسم والمتابعون للقضية جيداً، سيبقى في إطار الكلمات، وذلك على ضوء الالتزام الكويتي بعدم التخلي عن الاستقلال الذي تدعمه بريطانيا.

وإليك مثلاً آخر عن النزعة العربية لاعتبار الشروع بأمر ما إنجازاً كاملاً للأمر. ونأخذ المثال من المحاولة الانقلابية الفاشلة الثانية التي قام بها عارف عبد الرزاق، رئيس وزراء

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

العراق عام 1965. ضد حكومة الرئيس عبد الرحمان عارف ورئيس الوزراء عبد الرحمان البزاز. صيف عام 1966. فما أن قامت مجموعة من الضباط بالسيطرة مؤقتا على محطات الإذاعة في أبوغريب وبغداد حتى بثوا بيانات باسم عبد الرزاق باعتباره رئيس مجلس قيادة الثورة الجديد. ويصف مجيد خدوري ما حدث (في كتابه: العراق الجمهوري) قائلا:

أذيع بيان آخر أعلن نجاح الانقلاب ودعا عبد الرحمان عارف والبزاز إلى مغادرة مكنتيهما والعودة إلى بيتيهما. لكن هذه البيانات أوقفت وشجبت خلال ساعة ببيانات رسمية مضادة. وأعلن الرئيس عارف أن التمرد قُمع وأن المتمردين استسلموا.

وبعبارة أخرى، يمكن القول بأن المتمردين ما أن سيطروا على منبر إعلامي حتى أعلنوا نجاحهم في إسقاط الحكومة.

إن وجود النية للقيام بعمل ما، أو التخطيط لعمل ما، أو النية للقيام بأول خطوة لإنجاز أمر ما، هي بدائل عن إنجاز الأمور وإتمامها. ففي مقالة عن العام 2000، كتب وزير التعليم المصري كمال الدين حسين عام 1959: «الوحدة طريق التقدم... لقد خطونا الخطوة الأولى على هذا الطريق. وانتبهوا! لقد وصلنا!...» ويعلق المستعرب ارنولد هوتينغر (Arnold Hottinger) الذي انتقى المقطع السابق قائلا: «تلعب <الخطوة> دورا مفرطا في الدعاية الإعلامية القومية والتفكير القومي. فما تم <التخطيط> له جيد بقدر ما تم إنجازُه.»

ومن المهم هنا أن نشير هنا إلى أن العربية العامية (خاصة في سوريا ومصر) تحتوي شكلا نمطيا يبدو أنه يعبر عن نفس الميل للقيام بإعلانات لفظية تعبر عن النية عوضا عن المباشرة بالقيام بعمل محدد.

تبدو الميزة السابقة في استخدام الأداة اللغوية العامية «يد» أو اختصارها «ب» باعتبارها فعلا مساعدا أو سابقة لغوية للتعبير بوضوح عن فعل مستقبلي. فعندما يقول العربي: «أريد أن أفعل هذا» عوضا عن «سأفعل هذا» فإنه، في الحقيقة، يستعيز

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

عن نية بوصف لعمل في المستقبل. وعلى سبيل المثال: يقول العربي «أنا بدي أضربك» بمعنى «سأضربك» ولكن المعنى الحقيقي هو «أريد أن أضربك» ومن خلال صياغة الفعل المستقبلي على شكل نية، يحقق شيئاً من الراحة النفسية؛ وبعد ذلك لن يكون مرغماً لتنفيذ الفعل المنوي عمله.

إن الشعور بالرضى الذي يلي العبارة ذو أثر عكسي لأنه يميل إلى الحؤول دون إتباع الإعلان اللفظي بالفعل الموصوف. فعندما يتم التلفظ بالنية لأداء فعل ما، تترك الصيغة اللفظية نفسها انطباعاً في ذهن المتكلم بأنه قام بفعل ما إزاء الموقف الحالي، وهذا بدوره يقلل، نفسياً، أهمية إتباع اللفظ بترجمة النية المعبر عنها إلى فعل. إن الضغط النفسي للحاجة إلى القيام بفعل ما تتضاءل جراء التعبير عن النية للقيام بهذا الفعل، وبهذا الاعتبار تلعب الكلمات في العقلية العربية دور الأفعال بشكل دائم. وفي أحد خطابات عبد الناصر الأولى يشير إلى هذه الصفة وينتقدها بشدة قائلاً: «أحس من أعماقي أن المأساة التي وقعت علينا جميعاً في فلسطين لم تكن سوى نتيجة للطمأنينة التي هبطت على نفوسنا بعد الخطابات الشاعرية والتجمعات الجماهيرية. لقد استمعنا إلى الخطابات فشعرنا بالطمأنينة، وهذه الطمأنينة كانت السبب الأساسي والرئيسي في مأساة فلسطين» وينتقد محمد حسين هيكل، على نحو مماثل، القادة العرب لإظهارهم ما دعاه «حماسة» مما يؤدي إلى «الحديث عما ليس في حدود المستطاع والتهرب من الأفعال». إن عبارات كهذه تشير إلى أن أنماط السلوك عند العرب تركزت انطباعاً لدى بعض المراقبين العرب يشبه نفس الظاهرة التي قادت الغرب إلى إنشاء ما دعي (نظرية التنفيس)، أي أن: الإظهار اللفظي للعدوانية لا يؤدي إلى تخفيض توتر المرء فحسب، إنما يضعف، بفعالية، قوة رغباته العدوانية.

وثمة مثال آخر يختلف قليلاً ويوضح تأثير اللغة العربية على تعامل العرب مع القيام بفعل والواقعية طرحه شوبي (Shouby)، حيث استنتج أن اللغة العربية نفسها تميل إلى التسبب بإحلال الصور اللغوية محل الصور الإدراكية، والتي يتم التعامل معها (الصور

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

اللغوية) في كافة المجالات العملية وكأنها هي الحقيقة وليست مجرد تمثيل لغوي لها.

وبعد 3 أعوام توصل مالك بن نبي. وهو كاتب جزائري يكتب بالفرنسية. إلى استنتاج مماثل في أحد كتبه. ففي تحليله للوضع العقلاني للتقدميين. وهم عرب شمال أفريقيا الذين تلقوا تعليما فرنسيا والذي أعطاهم مظهرا تقدما وإسلاميا. لاحظ بن نبي أنهم يخلطون ما بين الكلمة والرمز وبين الواقع الذي يقع خلف ذلك.

لم تصل أبحاثي إلى تأكيد لهذا الاستنتاج. إذ لم أجد عندهم خلطا بين الكلمات وبين ما تمثله هذه الكلمات. وحتى أنني لم أجد تعاملًا مع الكلمات وكأنها حقيقة واقعة. لكن ما وجدته فعلا -وهنا أعيد تكرار ما ذكرته سابقا- هو أن التعبير اللفظي عن تهديد أو نية (وبخاصة عندما تقترب من التكرار ومبالغة) يحقق أهمية بحيث لا تعود هناك أهمية تذكر لاقترانه بتحقيق الفعل المعبر عنه. لا يوجد «خلط» ما بين الأقوال والأفعال. وإنما هنالك تبادل بتأثير نفسي في ما بينهما.

### 6. الإحساس بالزمن. وزمن الفعل

في دراسة للباحثة في علم الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) جوديث ويليامز (Judith Williams). حول الشباب في قرية (حوش الحريمي) اللبنانية. وجدت ويليامز أن الفلاحين المسلمين في هذه القرية غير قادرين على تذكر أحداث الماضي بشكل متسلسل. إذ كانوا يقومون بانتقالات كبيرة ما بين أحداث الطفولة المبكرة وصولا إلى مرحلة البلوغ. وبالعكس. ما بين أحداث حالية إلى ماضٍ سحيق. كما أنهم إن رتبوا الأحداث بالتسلسل. فسيكون ذلك اعتمادا على علامات زمنية خارجية (زواج. عيد. شجار...) دون الاعتماد على مراحل نمو عمرية ذاتية. وكانت إحدى عباراتهم النمطية التي ذكرتها ويليامز: «الماضي لا يهم». واشتبهت ويليامز بوجود ظاهرة التشوش الزمني ذاتها في عدم الاكتراث بتحديد العمر: فعمر الرضيع يحدد عندهم بـ«أقل من سنة» أو «أكثر من سنة». وعمر الكهل يحدد

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

بأنه بلغ «الأربعين أو الخمسين. وربما الستين.» ولاحظت ويليامز أن الأسئلة المتعلقة بعرض أحداث الحياة بتسلسل زمني شكلت لهم مهمة عسيرة وغريبة.

ربما يكون لهذه الصعوبة علاقة بعدم الرغبة أو عدم القدرة عند العرب على الاهتمام بتوقيت محدد ودقيق. ويمكن لكل من عاش مع العرب أن يشهد بأنهم أقل اهتماماً بالوقت من الغربيين. إذ يعيش الإنسان الغربي تحت سلطة الوقت ويبقى دائماً متيقظاً حول ما سيفعل أو يجب أن يفعل في مكان وزمان محددين في المستقبل القريب. ويلعب التخطيط والجدولة المتقدمة دوراً أساسياً في حياته اليومية. ويتأثر من الغرب تسرب شيء من تلك العادة إلى العالم العربي في العقود الراهنة. وأصبحت جداول العمل والجداول الزمنية وما يشبهها من العوامل الأساسية للحياة في المدن العربية. ولكن على الرغم من ذلك، يستمر الإهمال التقليدي للوقت منتشراً في العديد من مجالات الحياة. وبخاصة في القرى. وإليك مثلاً على الفرق ما بين العالمين: يقول الغربي. «أيمكنني زيارتك غداً في الخامسة مساءً؟». أما العربي فيقول. «سأتي لزيارتك غداً مساءً. إن شاء الله.» وتعني «مساءً» هنا أي وقت من العصر وحتى وقت متأخر من المساء. أو. في الحقيقة. أي مساءً في الأيام القليلة القادمة. أما «إن شاء الله» فترافق كل التزام قادم مع الإشارة إلى انعدام التأكيد. وعلى ضوء هذا يصبح من المستحيل. وغير الملائم في بعض السياقات. تحديد وقت أداء فعل مستقبلي بدقة أكبر.

وعلى ضوء إهمال الوقت هذا والنمط السلوكي الذي يتمظهر به. لن نتفاجأ بغياب مفهوم دقة التوقيت في الثقافة العربية التقليدية. وبالصعوبات الكبيرة التي واجهت قدوم الجداول الزمنية الصارمة التي يفرضها التحديث. كما لن يكون من المفاجئ استمرار ظاهرتي التأخر عن المواعيد أو الغياب عنها في أوجه الحياة العربية. بما في ذلك القمم العربية التي تستمر ليوم أو اثنين لكنها لا تستكمل حضور المدعوين الذين تم التجهيز لاستقبالهم بناء على التزامهم بالحضور.

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

قد لا نبالغ كثيرا إذا ما بحثنا عن صلة ما بين هذا الموقف التقليدي اللامبالي تجاه الوقت وبين المعالجة المتعجرفة للوقت التي يتسم بها نظام الفعل العربي. ففي اللغة الانكليزية يوجد توافق بين صيغة الفعل ومعناه عند أخذ الزمن بعين الاعتبار. وعندما يكون الفعل في صيغة الماضي فإن معناه يشير إلى الماضي. وعندما يكون في صيغة الحاضر يشير إلى عمل يتزامن مع إلقاء العبارة. وعندما يكون في صيغة المستقبل يشير إلى أمر سيحدث بعد إلقاء العبارة. إن هذا الترابط ما بين الصيغة الزمنية للفعل والمعنى أمر يدهي جدا للناطقين باللغة الانكليزية. ولكن الوضع في اللغة العربية مختلف جدا.

ويتفق أكثر علماء الألسنيات المرموقين على أن دراسة معاني الفعل العربي مهمة شديدة الصعوبة للباحث الذي يدرسها انطلاقا من خلفية لغوية هندوأوربية؛ إذ لا تنسجم الصيغ الزمنية للأفعال العربية مع ما يقابلها في اللغات الهندوأوربية. ولا تختلف اللغة العربية في هذا عن شقيقاتها من اللغات السامية. حيث يفترض علماء الألسنيات أن اللغة الأولية الافتراضية التي تفرعت عنها أسرة اللغات السامية كانت تحتوي على شكل وحيد للفعل فحسب. وهو الفعل غير التام. والذي كانت له وظيفة شاملة.

في اللغة العربية. يمكن للفعل غير التام (صيغة المضارع) أن يدل على الحاضر والمستقبل والماضي. ويمكن للفعل التام (صيغة الماضي) أن تدل على الماضي والمستقبل واستعمالات أخرى في الحياة اليومية. ومعنى ذلك أن الفعل التام ليس حكرا على معناه المعتاد (فعل تم إنجازه في الزمن الماضي) وإنما يتعدى ذلك إلى المعاني التالية:

- فعل تم إنجازه في الزمن الحاضر: مثل «جاء أحمد هنا.»
- فعل تم إنجازه قبل لحظة زمنية يشير إليها المتكلم: مثل «التقيت معلمين: أحدهما علّم في دمشق. والآخر علّم في حلب.»
- الحاضر: مثل «اختلف العلماء.» و «عز وجل.» و «علّمتُ.» و «بعثتُ هذا.»

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

• المستقبل عند التعبير عن أمنية: مثل «لعنه الله» و«والله: لا فعلتُ».

وثمة استعمالات أخرى للفعل التام، لكن ما ورد يكفي لإيضاح القصد.

وللفعل غير التام (صيغة المضارع) وظيفة أساسية تتمثل في التعبير عن الزمن الحاضر المستمر والمستقبل. كما قد يشير إلى أفعال اعتيادية مجردة من الزمن، مثل «كثرة العتاب تورث البغضاء».

وفي السياق التأكيدي يمكن للفعل غير التام أن يشير إلى الماضي، مثل «فأهويتُ نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف». كما يمكن له أن يعبر عن فعل في الماضي ترافق مع فعل آخر، مثل «جاؤوا أباهم بكون». وله أن يعبر أيضا، عن فعل في الماضي تلا فعلا آخر، مثل «أتى العين يشرب».

وبما أن الفعل غير التام قادر على أداء الكثير من المعاني المختلفة، فإن المتكلم حين يريد الإشارة بوضوح إلى فعل في المستقبل، يحتاج إلى استخدام أداة (سوف) قبل الفعل، مثل «سوف تعلمون». وعادة ما تختصر هذه الأداة إلى حرف السين فحسب، مثل «سنريهم».

لا زلنا نستخدم أمثلة فصحي حتى بلوغنا هذا الموضوع، وعلى الرغم من هذا، فإن اللغة العربية العامية، التي يتحدث بها الأميون الذين يشكلون أغلبية العرب، تتميز بالمرونة الفائقة نفسها أو التوسطية عندما يتعلق الأمر بزمن الفعل. وبالتالي، عندما يرغب المتحدث بتوضيح نيته بالقيام بفعل في المستقبل، فإنه يستعمل كلمة (بَدَّ) مضافا إليها ضمير متصل يدل عليه، مثل «هوّه بَدَّ يرجع»، وكثيرا ما تختصر (بَدَّ) إلى (ب) فقط مضافا إليها الفعل غير التام، مثل «بَضْرِب».

إن النتيجة التي نصل إليها من وراء هذا الاستعراض الضروري للتقنيات اللغوية في استخدام صيغتي الفعل (التام، وغير التام) في اللغة العربية: هي أن من يتكلم بلغة

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

يملك فيها الفعل تلك الخصائص المعنوية. لا يمكن للزمن أن يملك المضمون المحدد والمنظم والمتسلسل لدى نظيره عند من يتكلم لغة ذات بنية زمنية صارمة. وهذا يقودنا إلى اعتبار أكثر تعميما.

تم اكتشاف العلاقة التبادلية ما بين الثقافة واللغة في أوائل العشرينات من القرن العشرين على يد العالم اللغوي ادوارد سابير (Edward Sapir). والذي لا تزال عبارته الشهيرة حول الموضوع تقتبس بكثرة: حيث قال:

لا يعيش الكائن البشري في العالم المادي وحيدا. كما لا يكون وحيدا في عالم النشاط الاجتماعي كما هو المعتقد عادة؛ إنه يعيش تحت هيمنة واسعة تمارسها لغة محددة تكون وسيلة تعبير المجتمع.... إن حقيقة الأمر تتمثل في أن «العالم الحقيقي» يتشكل تدريجيا على مدى واسع من خلال العادات اللغوية للجماعة. ولا يمكن أن تتشابه لغتان بما يكفي لاعتبارهما تمثيلا لحقيقة اجتماعية واحدة. إن العالم الذي تعيش فيه مجتمعات مختلفة هو عوالم متميزة. أكثر من كونه عالما يحفل بعدة عناوين.

ثم قام العالم اللغوي بنجامين ل. وورف (Benjamin L. Whorf) بتمحيص هذه الرؤية وتطويرها لتصبح الفرضية المعروفة باسم (فرضية سابير-وورف) وتلخص فكرتها الرئيسية في أن «اللغة ليست مجرد أداة للتعبير عن العمل فحسب. وإنما هي إضافة إلى ذلك. وبشكل أدق. وسيلة لتوضيح ماهية العمل للناطقين بها.» وكما يقول وورف نفسه: «إن من يستخدم لغة ذات قواعد مختلفة بشكل ملحوظ. يُقاد بواسطة هذه القواعد إلى أنماط مختلفة للملاحظة وتقديرات مختلفة عند ملاحظة أحداث متشابهة ظاهريا. ولهذا لا يكون مؤهلا لأن يكون مراقبا حيث يشكل وجهات نظر عن العالم مختلفة نوعا ما.» وهكذا يجد وورف أن «النظام اللغوي (القواعد) في كل اللغات ليس مجرد أداة لإعادة الإنتاج من خلال التلفظ بالأفكار. فهي تتجاوز ذلك لتقوم بتشكيل الأفكار وتكون البرنامج

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

والمرشد في الفعاليات العقلية وتحليل الانطباعات وصناعة الناتج العقلي المعد للتداول....»

إن فرضية سابير-هورف ذات أهمية في ما يتعلق بما ناقشناه حول تأثير نظام الزمن في اللغة العربية على إدراك الزمن بشكل خاص. وفي ما يخص العلاقة بين مفهوم الزمن عند الناطقين بالانكليزية وتمييز الزمن في الفعل الانكليزي. لاحظ وورف أن نظام الزمن الثلاثي للفعل في اللغات الأوروبية الشائعة «يوجه كافة أوجه إدراكنا للزمن.» ويرى وورف أن مفهومي الزمن والمادة الأساسيين في العلوم عند غرب أوروبا لم ينتجا على شكل صدر عن تجربة إنسانية بل عن طبيعة اللغة أو اللغات التي تطور المفهوم ضمنها. ويقوم الناطقون باللغات الأوروبية الشائعة بممارسة «تجزئة وتنظيم انتشار الأحداث وتدفعها... ويعود ذلك عادة إلى أنه ضمن اللغة الأم. نكون ملزمين باتفاق يفرض علينا فعل ذلك. دون أن تكون الطبيعة نفسها مكونة من أجزاء على النحو الذي نراها عليه.» ولاحظ وورف أن «المحصلة الثقافية لوجهة النظر الأوروبية حول الوقت تتمثل في اهتمامنا المهياً لغويا بالأرشفة واليوميات والتاريخ والاهتمام بـ«الماضي» عموماً. ويضاف إلى ذلك إصرارنا على استعمال أدوات كالساعات والتقاويم والجداول الزمنية من أجل التحديد الدقيق للزمن.»

من الضروري إعطاء مقدمة مفصلة عن فرضية سابير-ورف. وبخاصة عما قاله وورف عن الزمن في اللغات الأوروبية الشائعة. وذلك من أجل تقديم صورة مناسبة نتمكن من خلالها أن نركز على العلاقة ما بين الزمن في الأفعال العربية والإحساس بالزمن كما يظهر في تصرفات العرب. ويمكن تطبيق فرضية وورف على اللغة العربية والعرب وفق الطريقة التالية: توجد في اللغة العربية أزمان للفعل مبهمه وغير محددة على المستوى المعنوي. وهذه الخاصية تمنح الثقافة العربية مفهوماً مبهماً وغير محدد للوقت. ومن هنا ينبغي على المجتمع العربي أن يكون متّصفاً بأنه يهتم بشكل أقل نسبياً بالوقت. بما في ذلك تكميم الوقت، والوعي بالمدد النسبية والمواضع التي احتلتها أحداث الماضي، وأهمية ترتيب الحياة وفق جداول زمنية.

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

إن الملاحظات التي وردت في بداية هذا القسم، والتي جمعتها الباحثة جوديث ويليامز (Judith Williams) من دراسة أجرتها على قرية لبنانية، جاءت بالاستنتاج السابق. إذ وجدت أن مهمة استعراض حياة أهالي قرية حوش الحريمي وفق منظور زمني هي «مهمة غريبة وشاقة». ونعلم الآن أن هذه الظاهرة هي مظهر للغموض الأكبر نسبياً في فهم الزمن والذي تفرضه اللغة العربية على من ينطقون بها. وذلك كما يفترض وورف.

وعلى ضوء هذه الرؤى، دعونا نبقي قليلاً مع إحدى خصائص زمن الفعل العربي، والتي أشير إليها سابقاً، ويبدو أنها تفسر سبب قيام أهالي قرية حوش الحريمي بما دعته جوديث ويليامز «تبادلاً هائلاً بين مواقع أحداث الماضي». إن اللغة العربية لا توفر صيغة سهلة للتمييز ما بين فترتين مختلفتين من الماضي، ولذلك، ينظر العقل العربي باهتمام أقل نسبياً إلى ما إذا كان فعلاً أو حدثاً أو وضعاً قد حدثاً في الماضي على نحو متزامن أو سبق أحدهما الآخر. وكأن الماضي كيان ضخم غير متميز لا أهمية فيه للاختلافات الزمنية والتي لا تتم ملاحظتها لهذا السبب، وعادة ما لا يُنْتَبه إلى أنها تندمج في الزمن الحاضر وتستمر معه إلى المستقبل. ويبدو أن هذه الميزة ناتجة عن النمو مع حالة نفسية تفرضها اللغة العربية باعتبارها اللغة الأم، واللغة التي تصوغ الفعاليات الفكرية.

من المؤكد أننا لسنا بصدد البدء بإجراء عملية تقييم عامة لكتابة التاريخ عند العرب. لكن يمكننا أن نذكر في هذا السياق أن تلك الكتابة جاء على شكل سير أشخاص ذوي طبيعة خاصة، وأن كتب التاريخ العربية مليئة بالمفارقات الزمنية وترتبك فيها التفاصيل والمسار الزمني. ويبدو هذا النقص في التسلسل الزمني والتواريخ واضحة في كتاب تاريخ البخاري (810-870م). حيث احتوى هذا الكتاب على سير رجال الإسناد في الأحاديث النبوية: لكننا نجد أن أقل من 7% فحسب من هذه السير قد اشتملت على ذكر تاريخ الوفاة، وأقل من 0.5% منها أشارت إلى تاريخ الولادة، وأكثر بقليل من 0.5% احتوت تاريخاً ما يحدد الزمان الذي عاش فيه صاحب السيرة. ويذكر لباقي المؤرخين في شؤون الدين اهتمام أقل بذكر التواريخ.

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

عند قراءة مؤلفات المؤرخين العرب والدراسات النقدية التي تتناول كتابة التاريخ عند العرب، يتولد لدى المرء انطباع بغياب فهم الزمن باعتباره عملية مستمرة. ووجدت الباحثة جوديث ويليامز لدى دراستها للقريبة اللبنانية أن الأحداث المهمة، كالزواج والاحتفال والشجار، يتم تذكرها واستعمالها كدلائل تنسب إليها أحداث أخرى عند استرجاع الذكريات. إن هذا النمط من استرجاع الذكريات على شكل «رزم» لأحداث متزامنة دون القدرة على تكوين سلاسل لأحداث منفصلة هو إحدى خواص المؤرخين العرب كذلك. ولا شك في أن هذا هو المعنى الذي أراده ابن خلدون، أفضل المؤرخين العرب، عندما عرّف التاريخ بأنه يذكر أحداثاً تختص بعصر أو أمة محددين. وعلى نفس المنوال سار الكافيجي، وهو أحد علماء الدين في القرن الخامس عشر، عندما رأى بأن الهدف من كتابة التاريخ هو تدوين أحداث مميزة ذات أهمية. وحتى عندما استخدم المؤرخون العرب مصطلح الزمن، فإنه لم يعبر عندهم عن مدة زمنية تجري ضمنها أحداث تاريخية، ولم يكن كما رآه الباحث شبنغلر «فضاء غير متناهٍ من الأزمان». بل كان يعبر لديهم عن حيز زمني محض يستند على حدث كبير أو مميز. وكما يرى الكافيجي، فإن العرب لم يفرقوا لغوياً ما بين الزمان والوقت. وعندما يكون الحال هكذا، فلا يمكن مقارنة كتابة التاريخ عند العرب بالطريقة النقدية في دراسة وكتابة التاريخ في الغرب (مدرسة ليوبولد فون رانكة Leopold von Ranke بشكل أساسي)، ولا بتفاعل التاريخ مع باقي العلوم الاجتماعية، الأمر الذي ميزه في الغرب منذ قرن من الزمن.

ولأخرج باستنتاج مما سبق، سألقي ضوءاً على اللغة العبرية، وهي من القلة الباقية على قيد الحياة من أسرة اللغات السامية. ففي شكلها القديم (التوراتي) احتوت اللغة العبرية على نظام مبهم لأزمنة الفعل مماثل لما هو الحال في اللغة العربية. وكان يمكن للفعل غير التام أن يشير إلى الزمن الماضي، كما كان يمكن للفعل التام أن يشير إلى المستقبل، مثل العربية تماماً. لكن العبرية مرت بعملية تطور بعد المرحلة التوراتية لينتهي بها الحال كما هي اليوم بعد أن تخلصت تماماً من الالتباسات القديمة. وفي الواقع، يمكن القول بأن أحد الاختلافات الرئيسية ما بين العبرية التوراتية والعبرية الحديثة يكمن

# العقل العربي

## الفصل الرابع: تأثيرات اللغة

في أن العبرية الحديثة تحتوي صيغا للماضي والمستقبل كاللغات الأوروبية. بينما احتوت العبرية التوراتية على صيغتي التام وغير التام كما هو حال اللغة العربية إلى يومنا هذا.

إذا أريد اللغة العربية أن تكون بيئة ملائمة لاحتياجات الحياة الحديثة. بما في ذلك ضرورات الخطاب العلمي والأكاديمي. فعليها أن تتعرض للعملية ذاتها التي مرت بها اللغة العبرية. عندها ينبغي أن تكون اللغة العربية أكثر واقعية. وأن تتخلص من الخطابية التقليدية والمبالغة والتأكيد المفرط. وأن تتحول صيغتا الفعل (التام وغير التام) إلى ما يقابلهما من صيغ الماضي والمستقبل في اللغات الأوروبية الشائعة.